

الحب

في ادب نجيب محفوظ

والحب كلمة كبيرة يطيب للمتفلسفين أحيانا تقسيمها وتبويبها ، ولا بأس من التفلسف هنا أيضا لكي أحدد ان الذي سارصده فسي قصص نجيب محفوظ هو الحب وليس المحبة ، الحب الذي نجر عنه أحمد عاكف بطل قصة « خان الخليلي » في الصفحة ١٥٨ بقوله : « ليس العدد الواحد بالقدس كما يقول الفيثاغوريون ، ولكنه الاثنان ، الانسان يفقد نفسه في الجماعة ، ويفرق في الكآبة والوحدة ، ولكنه يجدها عند أليفه ، فالتكاشف الصريح والحب العميق والالفة المتزجة ، وفرحة القلب بالقلب ، والطمأنينة اللانهائية ، لذات عميقة لا تحدث الا بين اثنين » .

وعلى ذلك فالحب الذي يعنينا هنا هو الحاجة والنزوع والميل الى امتلاك المحبوب بغية تحقيق الشعور بالاكتمال والرضى ، ومنعنا للالتباس نقول اننا لا ننظر الى الحب على انه ظاهرة محض جنسية أو حاجة عضوية تتطلب نوعا من التفرغ لطاقتها مثلها في ذلك كمثل الجوع والعطش ، أو أي وظيفة فيزيولوجية أخرى ، فظاهرة الحب أشد تعقيدا من ان تسمح ان يربد فهمها بتبسيطها الى هذا الحد .

وتتصف عاطفة الحب - كما يقول صادق جلال العظم في كتابه « في الحب والحب العفري » - كغيرها من المشاعر والانفعالات الانسانية بعددين رئيسيين : الامتداد في الزمان ، أي دوام الحالة العاطفية واستمرارها عبر فترة معينة من الزمن ، والاشتداد وهو يدل على مدى عنف هذه الحالة العاطفية وحدتها في لحظة ما من الزمان . وحالات الحب التي عاها أبطال نجيب محفوظ في معظمها ينتظمها البعد الثاني ، وهو اشتداد الحالة العاطفية وحدتها فسي لحظة ما من الزمان ، وذلك لان هذا النوع من الحب كما يبدو لي هو الذي يصلح للقصص والروايات ، هذا الحب الذي يزرع فجأة وينتهي فجأة ، وغالبا ما يكون انتهاؤه مأساويا .

اما الحب الذي ينتظمه البعد الاول ، وهو الامتداد في الزمان ، فهو الذي يفقد عنفه بمرور الزمن ويتحول الى صلة من نوع آخر تتصف بالثبات والاستقرار والالفة بين المتحابين ، وهذه الصلة بابتعادها عن الانفعال تصبح شاحبة ضعيفة غير قادرة على اثارة أي اختلاجات فسي أعماق الانسان . هذا الحب لم تقع عليه في قصص نجيب محفوظ الا نادرا كحب أحمد ابراهيم شوكت لسوسن حماد في « السكرية » ، وحب حسين كامل ليهية في « بداية ونهاية » .

ذلك لان الحب في بناء القصة عند محفوظ لم يكن هو الموضوع الرئيسي ، أي انه لا يمتد على طول القصة ، بل كان جزءا من كل ،

هل من الممكن ان تكون موضوعيين ، او ان نستطيع الحكم بعدل وانصاف عندما يستقرقنا شعور الإعجاب والحب ؟ اني أشك في قدرة أي كان على ذلك في مثل هذه الحال . ولقد خامرني هذا الشك عندما خطر لي ان اكتب عن نجيب محفوظ ، هذا الكاتب الذي عشت معه خلال الصيف الماضي متدرجة منذ عام ١٩٣٨ تاريخ صدور أول كتاب له وهو « همس الجنون » وحتى عام ١٩٧٢ تاريخ صدور آخر كتاب له وهو « المرايا » . وقد فاني فقط « اولاد حارتنا » و « شهر العسل » و « حكاية بلا بداية ولا نهاية » . وعندما أقول عشت معه فاني أعني تماما ما أقول ، جئني بدا لي وكان كتاباته قد غدت جزءا من تكويني .

لذلك فانا لن أقيم أدب نجيب محفوظ ولن أحكم عليه ، لانسي لا أستطيع ذلك ، وانما سأحاول أن أرصد ملامح الحب في قصصه ورواياته دون أفاصيله ، وذلك لان الاقصوصة في جوها ومناخها ليست تربة صالحة لدراسة حب كاملة ، فهي قد تصور معاناة واحدة مما يعانیه المحبون ، اما الحالة بكل شمولها فالقصة الطويلة أو الرواية أصلح لتصويرها . وقد اخترت هذا الموضوع من ادب نجيب محفوظ لاسباب ثلاثة :

اولا - لان هذا الموضوع يكاد يكون مهملًا من قبل الدارسين ، فنجيب محفوظ الكاتب الاجتماعي ، والروائي المؤرخ ، والمفكر التقدمي ، والفاصل الذي يشغله بناء القصة الفني ، استأثر باهتمام النقاد ، وصرّفهم عن نجيب محفوظ الانسان الذي يضم بين جنبيه قلبا يخفق بالحب ويؤرقه الحنين .

وثانيا - لانني رغبت في ان نعود قليلا الى الينايع بعد ان أمحل روض الادب وغرق في خضم السياسة بين اليمين واليسار تسارة والالتزام وعدم الالتزام تارة أخرى .

وثالثا - لانني أعتبر ان الحب هو القطع الرئيسي من قطاعات الحياة ، فكيف اذا كانت الحياة حياة فنان ، لا سيما وان لفة الحب حينما تسكب على أي معنى تجمله وتمنحه حفا في الحياة وفي الخلود حتى ما بعد الحياة . وأظن ان غاية الفايات التي يسعى اليها الناس هي نشدان السعادة والرضى ، وعندما يكون الانسان في حالة حب يكون قد قطع شوطا طويلا في سبيل الوصول الى تلك الغاية ، والحب كما أراه - لدى الفنان - هو وسيلة لغاية أخرى تضاف الى تلك الغاية ، هو وسيلة للفن وللعملاء .

اي انه مفامرة من مفامرات الحياة يزج بها في قصصه التي تصور الحياة ككل .

من هنا نجد ان الحب عند أبطاله يتجسد في المفامرة التي تنتهي عادة بضربة من ضربات القدر فتخلف الشعور بالمرارة والالام ، وهناك حالة حب واحدة في قصص نجيب محفوظ اخترقت جدار مفارقة الحب الكبرى ، هذا التعبير الذي اصطلحه صادق العظم على امتناع الجمع بين الامتداد والاشتداد في حالة حب واحدة ، هذه الحالة هي حب عجلان ثابت لزوجته في « المرايا » ، هذا الرجل الذي « قدس علاقته بها ، متفانيا في الاخلاص لها والتسامح معها ، مهيبا لها الحيياة الطيبة ، ولم يسمح لنفسه بمعاسبتها على تصرف ، تواجدت ام غابت ، استقامت ام استمرت . وهو الذي هز رأسه في رثاء لداماتها الايفون وقال : اني احبها وسأحبها الى الابد ، ولكنها لم تعد قادرة على اعطاء الحب » (المرايا ص : ٢٦٠) .

بعد ان حددنا الطابع العام للحب عند محفوظ يحسن ان ندخل في بعض التفصيلات ، وأول ما نلاحظه ان الحب بين المتحابين ليس متبادلا بنفس العمق والشدة الا في القصص التاريخية ، التي تستند الى الاسطورة كحب فرعون للغانية رادوبيس ، وحب ددف بن رع للاميرة مري سي عنخ في قصة « عيث الاقدار » ، وكان الكاتب يقر بان الحب العميق الذي يربط ربطا حقيقيا بين قلبين وبنفس الشدة والانفعال لا وجود له في الواقع ، وانما هو امر في حكم الاساطير .

وهناك الحب الابدي الخالص المجرد حتى من شكل المحبوب كحب بنامون بن يسار في رادوبيس « هذا الحب الذي لا يعرف الاثرة ولا التملك ولا الطمع ، ويرضى بالاحلام والاوهام ، فيا له من شاب حالم بعيد عن الدنيا ، ولو طمع في قبلة مثلا لما عرف كيف تتحاماه ، ولكنه لا يطمع في شيء كأنه يخشى لو لمسها ان يحترق بلهب غامض او لعله لا يصدق انها شيء يمكن ان يلمس ويقبل ، انه لا يرمقها بعين انسان ، فلا يستطيع ان يراها من بني الانسان ، ويقنع بان يحيا على بهائنها كما يحيا نبات الارض بالشمس السابحة في السموات » (رادوبيس ، ص ١٧٧) . او كحب كمال احمد عبد الجواد لعائدة في الثلاثية ، هذا الذي رفعها الى مصاف الالهة ، ورضي بهذا الحب المحروم الى آخر حياته ، ورضي بالالم الذي سببه له بل احب هذا الالم واستمره « تلذق هذا النوع من الالم المقطر ، روح الالم او ألم الالم ، ليكون عزاءك انك انفردت بألم لم يشعر به انسان قبلك ، وانه سيهون عليك الجحيم اذا قدر يوما ان تحملك زبائته على السنة لهيبه ، ألم .. لا لفقد الحبيب ، فانك ما طعمت يوما بامتلاكه ، ولكن لتزوله من علباء سمائه ، لتمرغه في الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب .. لانه رضي لخده ان يقبل ولذمه ان يسفح ولجسده ان يتدل ، ما اشد حسرتي والي » (قصر الشوق ص ٢٥١) .

وهاتان الشخصيتان تقودان للتساؤل : هل الحب من قضايا العالم السفلي ام انه من قضايا العالم العلوي ، وهل هناك حب آثم وحب طاهر ؟ لعل شخصية احمد عبد الجواد العمود الفقري للثلاثية تلقي ضوءا على الاجابة « فالسيد لم يخبر من الوان الحب ، على وفرة مفامراته ، الا الحب العضوي ، الا انه تدرج في اعتناقه الى ارق صورة واتقاه ، فلم يكن حيوانا بحتا ولكنه الى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة شعور وولعا بالفناء والطرب ، فسما بالشهوة التي اسمى ما يمكن ان تسمو اليه في مجالها العضوي .. لم ير في آية امرأة الا جسدا ولكنه لم يكن يعني هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا بان يرى ويلمس وبذاق ويشم ويسمع ، شهوة لكنها ليست وحشية ولا عميةا هذبتها صنعة ووجهها فن فاتخذت لها من الطرب

والفكاهة والبشاشة جوا واطارا » (بين القصرين ص ١١٢) . بينما نجد نفيسة كامل علي في « بداية ونهاية » قد هوت الى الحضيض اذ « لم يكن بوسعها ان تنفر من انسان ايا كان اذا أبدى نحوها ميلا ، لا يسمعا الا ان تحب من يحبها » (بداية ونهاية ص ٧٣) .

لعل هذه النماذج الاربعة الاخيرة من الشخصيات تمثل جانبيين متطرفين في الحب ، وربما الحب الذي يسمى اليه البشر هو وسط بين الجانبين « هل الحب شيء غير هذا الشوق الفاضل السابع من الحنايا ، هل هو شيء غير هذا الحنين الذي تزفر أنفاسه عصير القلب والكبد ؟ . هل هو شيء غير هذا الفرح السماوي تطرب له النفس والدنيا جميعا ؟ . هل هو شيء غير هذا الالم المشفق مسن الاخفاق والعودة الى الوحدة والوحشة ؟ هل هو شيء غير ان تسكن تلك الصورة الساذجة اللطيفة هذا الصدر فتصير زاد احلامه ومبعث آماله والامه » (خان الخليلي ص ٩٦) .

هذا هو الحب من حيث هو ظاهرة قائمة بذاتها عند نجيب محفوظ ، ولكن الا يختلف الحب تبعا لطبيعة المحبين ؟ هل الحب يدكي روح التنافس او يخمدها ، وهل يكبله الحياء والاستكبار والجبن (شخصية احمد عاكف في خان الخليلي) ام انه « لا يجوز لمن يتصدى للحب ان يعرقل جهاده بالحياء او بالجزع او بالخوف ، انس كرامتك اذا كنت في اثر امرأة ، لا تفضب اذا عنفتك ، لا تحزن اذا سبتك ، فالتعنيف والسب من وقود الحب ، واذا ضربتك امرأة على خدك الايسر فادر لها خدك الايمن ، وانت أنت السيد في النهاية » (خان الخليلي ، شخصية رشدي عاكف) .

هل يعني هذا دعوة للكفاح من أجل الحب وقد « شعر عباس في هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره العجيب ، ولعله أحس احساسا غامضا لا يرتقي لمرتبة الوعي والفكر بقدرة الحب على الخلق والتعمير ، فموضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والابداع والتجديد ، ولذلك خلق الله الانسان محبا ، وترك مهمة تمييز الوجود امانة في رعاية الحب » (زقاق المدق ص ٤١) .

وهناك الحب الصامت الذي لا يعبر عن نفسه ولا يكافح من أجل الوصول ، وانما يستسلم للقدر في رضى تام ودون نامة تمرد ، فيترك حبه مستتيما في حنايا الذات ، ولا يستيقظ الا عندما تطرق الفرصة بابه بشدة كما نجد في حب حسين لبهية في « بداية ونهاية » .

كما نجد المحب عند محفوظ يتمنى الدمار للعالم بما فيه ليستطيع ان يخلو بالحبيب ، فكثيرا ما يرتبط الحب بالوت كربة صابر سيد الرحيمي في رواية « الطريق » ، ورغبة احمد عاكف في « خسان الخليلي » .

ومن المحبين عند محفوظ من يخلق العقبان التي تعوقه عن الوصول الى حبيبه ، كحب صابر لالهام في رواية « الطريق » ، اذ انه يكذب عليها ، فيتستر على حقيقة كونه يبحث عن أبيه في المرحلة الاولى من حبه أي قبل ارتكابه الجريمة ، ثم يعترف لها بهذه الحقيقة عندما يكون لديه عائق اكبر يحول دون الوصول اليها وهو استحالته الى مجرم .

وشخصية صابر الرحيمي في نطاق الحب - علما بان لها دورا اكبر في بناء القصة ككل - شخصية غنية جدا ، فهي تمثل الصراع الدائم في النفس بين الحب الذي اصطلح على تسميته بآثم وبين الحب الطاهر ، أي بين عشق الروح وعشق الجسد ، هذا الصراع الذي استعير له تعبير « مفارقة الحب » الذي اصطلحه صادق العظم

في كتابه « في الحب والحب العذري » لتعبير عن استحالة تحقيق بعدي الامتداد والاشتداد في حالة حب واحدة ، أستعيره هنا للتعبير عن استحالة اجتماع هذين النوعين المتطرفين في حالة حب واحدة .

إذا كانت شخصيات نجيب محفوظ هي نماذج من المجتمع المصري ، إلا أنها جميعها من خلقه ، فهو سوى طينتها ونفخ فيها من روحه . ولكن يبقى أماننا احتمال آخر ، وهو أنه بصفته روائيسا ، يستطيع أن يعيش عدة حيوات في وقت واحد ، وهو قادر على تلبس العواطف الانسانية بالرغم من تباينها وتناقضها ، من هنا يمكننا اعتباره غريبا عن شخصياته . وكون الاديب يكتب بوحى من فئاته ، وفي أكثر الاحيان بوحى من حياته الخاصة ، لا يعني بالضرورة بالنسبة للدارس الذي يتصدى للعمل الادبي ان يخلط بين النموذج الانساني السذي يصوره الكاتب ، وبين الكاتب نفسه .

ولكن صدور « المراه » التي قيل انها مشروع مذكرات شخصية لنجيب محفوظ ، وغلبة الفنان عنده حولتها في النهاية من مذكرات الى رواية ، يطرح امامنا علامة استفهام حول كون الروائي يعيش عدة حيوات او انه يعيش حياته فقط ، وخاصة في موضوع الحب ، هذا الموضوع الذاتي البحث ، ذلك ان معظم الشخصيات التي تحدث عنها في « المراه » ما هي الا نماذج عرفناها في قصصه وروايته السابقة ، ويعني هنا العنصر النسائي ، لانه يشكل الطرف الآخر بالنسبة للرجل في تركيب الحب ، فمجيدة عبد الرزاق تذكرنا بسوسن حماد في « السكرية » ، وفايزة نصار تذكرنا بزهرة في « ميرامار » ، ويسرية بشير تذكرنا بهريم في « بين القصرين » وعلاقة كمال بها ، وأماني محمد تذكرنا بسنية كامل في « ثرثرة فوق النيل » ، وصفاء الكاتب تذكرنا بعائدة شداد في « قصر الشوق » ، وسعاد وهيي تذكرنا بزئوبة في « الثلاثية » ، ووداد رشدي تذكرنا بالهام في « الطريق » .

اما المرأة كما تبدو في قصص نجيب محفوظ ، فهي انسان معافي نفسيا ، أي انها قادرة على الاختيار وجديرة به ، ليست مقهورة ولا

مفلوبة على امرها ، كاحسان في « القاهرة الجديدة » وحميدة في « زقاق المدق » ، وحتى أمينة في الثلاثية التي تمثل القهر والكبت العام ، واما هي ذاتها فليست مقهورة ولا مفلوبة على امرها ، وانما تشعر بالرضى والاكتفاء . وكذلك زئوبة وخديجة وسوسن حماد في الثلاثية ، والهام وكريمة في « الطريق » ، وريوي في « السمان والخريف » ، وسمارة بهجت في « ثرثرة فوق النيل » . وتصوير المرأة على هذا الشكل ان دل على انها معافاة نفسيا ، فانه دليل أعمق على ان الكاتب نفسه في أم عافية .

بالرغم مما تقدم تبقى علامة الاستفهام قائمة ، هل الحب الذي استغلصنا ملامحه في أدب نجيب محفوظ هو نفسه الحب عند نجيب محفوظ ؟ لا يمكننا القطع في الإجابة ، ونكتفي بأن ثبتت أخيرا ان الحب لم يكن موضوعا أساسيا في قصصه ، أي انه لا يمتد على طول القصة ، ولكن هو مهم جدا ، لانه يربط الجو العام للقصة ، فينسب في حناياها دماء الحياة .

وقد صور في أبطاله المحبين معظم تناقضات المشاعر الانسانية ، فتارة هم عذريون ينشدون اللذة في الألم أكثر مما ينشدونها في الحب ، وتارة هم جسورون يستهينون بكل عقبة في سبيل الحب . تارة تعمرهم الرغبة بأعمار الوجود وضخ الحياة في الأشياء ، وتارة تفرقهم الرغبة في التخريب والتدمير ، ولكننا لم نجد في محبيه من يسعى للموت في سبيل الحب ، او من مات بسبب الحب ، الا في القصص التاريخية . وهذا تأكيد من الكاتب على أن الحب هو صنو الحياة يأخذ منها بقدر ما يعطيها .

قد يكون لغيرنا من الدارسين رأي آخر في الموضوع ، ولكن حسبنا اننا سعينا للكشف عن جانب من أدب نجيب محفوظ لم يخرج الى موقع الضوء في اهتمامات دارسيه الا في اطلالات عابرة .

سلافة العامري

دمشق

دار الآداب تقدم :

هيل المراهي القديمة

مجموعة قصص

غادة السمان

رؤى عجيبة لعالم واقعي واسطوري تحتل فيه
ماساة الهزيمة الحزيرانية حجار الزاوية، بذلك الاسلوب
المتوتر واللغة الحية اللذين اصبحت فيهما غادة السمان
نسيج وحدهما في القصة العربية القصيرة

٤٠٠ ق . ل

صدر حديثا